# الحوار الرسالي مع الغرب موضوعا ومنهجا

د. عبد المجيد النجار

الأستاذ في المعهد الأوربي للعلوم

الإنسانية - فرنسا

## تمهيـــد

إن الله تعالى قد تعبدنا بأن نكون شهداء على الناس كما جاء في الذكر الحكيم ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (البقرة:١٤٣) وهذه الشهادة إنما هي تعريف الناس بالمنافع والخيرات المعنوية والمادية التي يتضمنها الإسلام، ودعوتهم إلى تفهّمها والاقتناع بها والعمل بمقتضاها، وبما أنّ هذه الشهادة واجبة على المسلمين دائمة إلى آخر الدهر، فإنهم إذن يتوفّرون على ما يقدمونه للبشرية من خير في كل زمان مهما ظنّ الظانّون أنهم قد بلغوا من التقدّم الحضاري ما لا يحتاجون معه إلى خير من خارجهم، ولا يُستثنى زمننا هذا من أن تنطبق عليه هذه السنة الماضية إلى آخر الدهر.

وقياماً بهذا الواجب في الشهادة على الناس يكون من الضروري أن يسلك المسلمون مسلك الحوار مع هؤلاء المشهود عليهم، إذ الهدف هو التعريف بما في دينهم من خير، والإقناع به في سبيل الاستفادة منه، وذلك لا يمكن أن يتمّ إلا خلال منهج حواري بين الطرفين، تتبادل فيه الآراء، وتتدافع فيه الحجج، حتى يبلغ الحوار غايته المبتغاة منه ضمن مبدىء الشهادة.

ولذلك فإن الحوار المطلوب اليوم مع الغرب ليس هو الحوار الذي يكتفي بتبادل الآراء، أو بالتعاون في بعض المجالات التي هي ساحة التقاء، أو ببيان كلّ لما هو عليه من حقّ وما عليه الطرف المقابل من باطل، أو بالحوار الذي

يتصدّى لفكّ مفاصل الاشتباك التي قد تنشب بين الطرفين بين الحين والآخر، وإنما ينبغي أن يكون من قِبل المسلمين حوار رسالة قائماً على مبدء الشهادة التي تقتضي أن يقدّموا فيهَ للناس ما فيه خيرهم، وما يسهم في حلّ المشكلات التي تؤرّق الإنسانية عامّة وأهل الغرب بصفة خاصّة، وبذلك يكون الحوار ذا مضمون نفعي، من شأنه أن يرتقي بالإنسانية إلى ما فيه الخير والأمن والتعايش السلمي والبناء الحضاري.

ربما ظنّ أهل هذا الزمان من روّاد الحضارة الغربية أنهم قد بلغوا في سلّم الحضارة شأوا بعيدا، فأصبحوا هم المتصدرون للشهادة على العالمين بكسوبهم الحضارية، مستغنين عن كلّ من سواهم أن ينفعوهم بشيء، وربما قوي هذا الظنّ عندهم بالنظر إلى المسلمين بصفة خاصة، فما عسى أن يشهدوا به عليهم وهم القابعون في أدنى السلّم الحضاري؟ وهل لفاقد الشيء أن يعطيه؟

ولكنّ المتأمّل بنظر العقل في واقع العالم الغربي وأوضاعه، وفيما يتوفّر عليه الإسلام من القيم يصل - لا شكّ - إلى نتيجة مخالفة لهذا الظن الموهوم، فأهل الغرب وإن هم قد بلغوا من التقدّم الحضاري المادي مبلغا عظيما إلا أنهم وهم البشر كسائر البشر يتعرضون ويتعرض العالم معهم إلى أزمات حادة في المجال النفسي والاجتماعي والأخلاقي والبيئي؛ ذلك لأن الحضارة التي أقاموها وعمموها أشبعت في الإنسان مطالبه المادية فهي حضارة قامت على فلسفة الاستهلاك المادي باعتباره الغنم الأكبر في هذه الحياة التي ليس بعدها حياة، وتناست الأشواق الروحية للإنسان التي تربطه بعوالم تتجاوز الأبعاد المادية، وهكذا آلت الحياة الفردية والجماعية إلى جفاف

ضارب وقحول رهيب، ظهرت آثارهما في معاناة مضنية من القلق والاكتئاب والتفكك الأسري والحروب المدمرة والخوف من مصير مجهول للبيئة بما أصابها من خراب ينذر بمآلها إلى الفناء.

إزاء هذا الوضع فإن نظرة موضوعية إلى ما يتضمنه الإسلام من القيم الفلسفية توجّه حياة الإنسان في نفسه ومجتمعه وبيئته تفضي إلى اليقين بأنّ المسلمين يمكن أن يقدّموا للعالم في وضعه الراهن ما يكونون به شهداء على الناس، نافعين بالخير، مسهمين في حلّ المعضلات التي تتخبّط فيها الإنسانية، ولا يضيرهم في ذلك أن يكونوا في ميزان التحضر المادي في درجات متخلفة، فالمصلحون المبشرون بالخير لم يكونوا دوما في التاريخ الإنساني من روّاد التحضّر المادي؛ ذلك لأن القيم الكبرى كما نؤمن هي التي تحرك التاريخ في أبعاده المادية، وقد كان للمسلمين تجربة تاريخية شاهدة على ذلك، فحينما بشّروا بالقيم الإسلامية التي أنشأت الحضارة المشهودة لم يكونوا في سلّم التقدّم المادي إلا في درجات متأخرة منه، فكيف لا يستطيعون اليوم - وهم في هذا الشأن - أفضل وضعا أن يقدموا للبشرية الحائرة ما فيه خيرها وعلاج أسقامها.

ولكنّ هذا الدور الشاهد المطلوب من المسلمين اليوم إزاء أهل الغرب بصفة خاصّة لا يمكن أن يتمّ إلا عن طريق حوار جادّ قائم على استعداد علمي، وتتعاون فيه قوى متعددة من قوى المجتمع الإسلامي، فيما يشبه أن يكون علما قائما بذاته يمكن أن يُسمّى بعلم الحوار مع أهل الغرب، ويكون محدّدا فيه المضمون الذي يُراد أن يُبلّغ للناس من أجل الإسهام في حلّ المشكلات التي تعترض الحياة الإنسانية، ومحدّدا فيه المنهج الذي ينبغي أن يُقدّم فيه ذلك المضمون من أجل أن يبلغ ذلك المضمون هدفه...

## ١ ـ مضمون الحوار الرسالي

إذا كان المسلمون ليس بإمكانهم حاليا أن يقدموا للإنسان علوما كونية وتقنية، ومبتكرات صناعية مادية لتخلفهم في ذلك جميعا، فإنّ في مخزونهم القيمي الكثير مما يمكن أن يقدّم للإنسانية، ويكون فيه الخير العميم، والعلاج الناجع للكثير من المشكلات التي يعاني منها الإنسان. ويمكن في هذه العجالة أن نشرح ثلاثة نماذج من القيم التي يعاني في شأنها أهل الغرب خاصة والإنسان عامّة معاناة شديدة تؤرّق الحياة وتنذر بسوء المصير، ويتعلّق كل واحد منها بمجال من مجالات الحياة.

### أ ـ معادلة الروح والمادة في مجال الوجود

إذا كانت الفلسفة الغربية التي تقود الحضارة الراهنة قد اتخذت من البعد المادي في التصور الوجودي عامة وفي تصور الوجود الإنساني خاصة البعد الأوحد الذي تؤسس عليه الحياة، فإنّ فلسفات وأديانا أخرى شطّت في عكس ذلك، فاتخذت من البعد الروحي البعد الحقيقي إن لم يكن الأوحد الذي أقامت عليه حياتها في كلّ المجالات، فأغرقت تلك في إشباع المطالب المادية لاغيةً أو تكاد تلغي مطالب الروح، وأغرقت هذه في إشباع مطالب الروح لاغية أو تكاد تلغي مطالب الجسم.

وقد أصاب الإنسان في كلّ من الحالين رهق شديد جرّاء هذا التعسّف على الفطرة الإنسانية التي خلقت على تركيب مزدوج من مادة وروح لكل منهما مطالب يسعى إلى تحقيقها، فإذا ما قُمعت تلك المطالب باء الإنسان بالأوجاع، وتعثّرت مسيرته في التعمير. وهاهو إنسان الغرب اليوم يشبع

الجسم ألوانا غير محدودة من المباهج المادية ولكنه يتجرع آلاما روحية ظهرت في أمراض من الاكتئاب والقلق واليأس، أو في الهروب من الحياة بالمخدرات والانتحارات، ولا غرو فإن تلك نتيجة طبيعية للشعور بأن الحياة قد استنفدت أغراضها المنحصرة في المتع المادية، وإذ قد تحققت هذه المتع فماذا بقي للحياة من معنى يدفع إلى الحفاظ عليها؟

إن الإسلام قد انفرد كما نعتقد من بين الفلسفات والأديان بأن أقام مطالب الحياة على معادلة دقيقة بين الجسم والروح، فقد اعتبر البعد المادي في كينونة الإنسان حقيقة مشروعة لبّى مطالبها الفطرية لإشباع أشواق الشهوات، واعتبر البعد الروحي فيها حقيقة مشروعة، أيضا لبّى أشواقها في طلب السموّ والاتصال بالمطلق، وهكذا يعيش الإنسان بهذه المعادلة رضيّ النفس بمتع الحياة الدنيا، ولكنّه ممتدّ بالأمل تحدوه أشواق الروح إلى ما لا نهاية، فلا هو مأزوم بكبت مطالب فطرته الجسمية، ولا هو يائس من الحياة لاستنفاد أغراضها المنحصرة في تلبية تلك المطالب، وبذلك يكون معمّرا في الأرض عاملا العمل الدؤوب لإشباع جسمه كأنه يعيش أبدا، ولإشباع مطالب روحه كأنه يموت غدا.

ألا تكون هذه القيمة العليا من قيم الحياة جديرة بأن يقدّمها المسلمون اليوم إلى عالم برّحت به آلام المجاعة الروحية كما برحت به آلام التخمة المادية، فإذا هو يعيش حالة من قلق وجودي واضطراب نفسي انعكس في سيرته عنفا فرديا وجماعيا، أو اكتئابا ويأسا، أو استهتارا بفطرته الإنسانية ينقلب به إلى ممارسات من الشذوذ الحيواني، فإذا ما نزعت الفطرة في بعض النفوس إلى تعديل الميل الحاصل فيها اتجه ذلك النزوع إلى ميل نحو

روحانية مفرطة باتباع مذاهب شرقية إشراقية مغالية، فإذا المعادلة تنخرم من جديد نحو ذلك الجانب الروحاني، فلا يكون لها استواء إلا بهذه القيمة الإسلامية المعادلة بين الجسم والروح في الإنسان.

### ب ـ السّكَنُ في المجال الأسري

لا يخفى ما يعانيه الغرب اليوم من تفكك أسري رهيب، لا يأتي فقط على تلك الروابط الروحية بين أفراد الأسرة، ولا يذهب بذلك السكن الذي يجده الفرد في أحضانها، ولا يصيب الأفراد بجفاف العواطف، وقحول الحياة، وإنما هو مع ذلك كله يهدّد هذه المؤسسة الاجتماعية القديمة بالتلاشي، ويهدد بذلك كلّ الكسب الإنساني في هذا المجال منذ وجد الإنسان بأن يذهب هباء.

وليس هذا المآل الذي آلت إليه الأسرة في الغرب نتيجة لمسار سلوكي عملي انساقت فيه الحياة على وجه التلقائية، أو تحت ضغوط النسق الحضاري الشديد الوطأة، وإنما هو وإن بدا في أول أمره كذلك إلا أنه أصبح منذ بعض الزمن يصاغ عند كثيرين صياغة نظرية فلسفية مؤصّلة، تمتدّ إلى الأسرة في أصل وجودها بما يمكن أن يؤول بها إلى الانقراض، إذ هي على رأي هؤلاء ليست إلا نمطاً موروثاً بالعادة، فيمكن أن تمتدّ إليه يد التغيير كما تمتدّ إلى سائر العادات، وفي هذا السياق شُرّع للشذوذ الجنسي أن يكون قاعدة للأسرة الجديدة، وهو ما لو فشا في الناس لأدّى إلى انقراض الذرية وفناء النوع الإنساني، وفي هذا السياق أيضا ظهرت فلسفة الأسرة الطبيعية التي لا تقوم على ميثاق، بل تكتفي بمجرد اللقاء الحيواني، كما تندرج ضمنه فلسفة الجندر التي تسوي بين الجنسين تسوية تكاد تكون تامة فتنتهي في آخر الأمر إلى ذات

النهاية الكئيبة في المجال الأسري.

لقد كان الحصاد مراً في هذا التفلّت الأسري عملية ونظرية، إذ انتهى إلى انحلال الروابط بين أفراد الأسرة، وتمزّق الوشائج العاطفية بينهم، وانعكس ذلك على الأوضاع النفسية يتجرعها أوجاعا أولئك الأفراد وخاصة منهم من كان في طرفي العمر صبى أو شيخوخة، والشواهد على ذلك تتواتر يوما بعد يوم في الواقع الأوروبي على نحو ما وقع في فرنسا منذ بعض السنوات من أنّ ثلث الخمسة عشر ألفا من المسنين الذين قضوا في موجة الحرّ لم يدلّ على موتهم إلا الروائح الكريهة التي انبعثت من منازلهم، وعلى نحو ما تناقلته الأخبار من النمسا من أنّ أباً حبس ابنته في قبو منزل أربعة وعشرين عاما وأنجب منها سبعة أبناء، إنها مأساة الأسرة في العالم الغربي التي لا تهدّد الإنسان في سعادته وإنما تهدّده أيضا في وجوده.

وفي الإسلام تحتلّ الأسرة درجة عليا في سلّم القيم الأخلاقية والاجتماعية، فقد شرع من القوانين التي تحميها وتحافظ عليها ما لم يشرع في أي مجال آخر من المجالات الاجتماعية، وأحيطت بضرب من القداسة عبّر عنه القرآن الكريم بالميثاق الغليظ من شأنه أن يعلي من مقامها في الضمير الفردي والجمعي بما يجعلها السكن الذي تسكن إليه النفوس وتتمتّن به الأواصر المادية والمعنوية فيعصمها ذلك من الانحلال، وقد أثبتت التجربة التاريخية أنّ هذا التشريع كان هو الضامن لاستمرارية القيم الأسرية، وبما هو تشريع ثابت فإنه سيظلّ كذلك إلى آخر الدهر مهما تناوشته الأحداث في زمن من الأزمان أو ظرف من الظروف.

إنّ هذه القيم الأسرية يمكن للمسلمين أن يشهدوا بها على الناس في الواقع الغربي وقد أرهقته آلام التفكّك الأسري، وغدت هذه الآلام مصدر شكاة يزفر بها الكثير من المفكرين المهتمين بالشأن الاجتماعي والحضاري، فلو قُدّمت لهم هذه القيم بالطريق الأقوم فإنهم سيجدون فيها مادة للتبشير، ودواء للإنقاذ، من شأنه أن يوقف هذا التردّي الذي تتدحرج به الأسرة الغربية إلى المصير المظلم الذي يهدّد فيه المجتمع بأكمله في استقراره بل في وجوده واستمراره.

### ج ـ التوازن في المجال البيئي

لا يخفى ما يشغل العالم اليوم من أزمة خطيرة عُرفت بأزمة البيئة، تلك المتمثّلة في الخلل الذي يحدثه الإنسان في الطبيعة بشراهته في الاستهلاك المفرط الذي نجم عنه استنفاذ لبعض عناصرها، وتلويث لهوائها وبحارها، وتحطيم لبعض مكوّناتها الحامية، فغدت بيئة مختلاّ توازنها، مكشوفة من حامياتها، مسمومة في مساحاتها الحيوية. وإذا كان هذا الوضع لم يبلغ الآن حدّ الخطر الأكبر إلا أنّه لو تطوّر على نفس النسق فإنه سيؤول يوما ما قد لا يكون بعيدا إلى أن تعجز البيئة عن إعالة الحياة، فتكون تلك النهاية للوجود الإنساني على وجه الأرض، وهو الأمر الذي أصبح يقضّ مضاجع العارفين بهذا الشأن، فرفعوا أصواتهم منذرين بمصير بيئي تنتهي به الحياة، ويصبح الإنسان أسطورة كأساطير الدينصور المنقرض منذ ملايين السنين.

وليست هذه الأزمة بناشئة في أصلها من التصرّفات العملية السلوكية للإنسان فيما تمتدّ به يده للإفساد في الأرض، وإنما هي ناشئة في حقيقتها من الخلفية الفلسفية الثقافية التي تصدر عنها تلك التصرّفات، فالفلسفة الغربية

التي أنشأت هذه الحضارة الراهنة قامت على اعتبار الطبيعة عدوا للإنسان فينبغي غزوها لافتكاك المنافع منها، تلك المنافع التي ينبغي أن تفتكّ بأكبر قدر ممكن إذ هي الغنم الأكبر والوحيد في حياة ليس بعدها من حياة، وفي هذا الغزو الاستهلاكي المفرط تتمّ المفاسد التي تنال البيئة بالخلل في توازنها خللا إذا لم يتمّ فيه علاج فإنه سينتهي إلى تلك النهاية المأساوية للحياة على الأرض.

وقد جاء الإسلام بقيم في هذا الشأن هي أعلى القيم وأرقاها، وهي الكفيلة وحدها بأن تحافظ على البيئة الطبيعية صالحة لاستمرارية الحياة وإعمارها. وقد تأسّست تلك القيم ابتداء على تصوّر للطبيعة على أنها مجلًى لصفات الله تعالى تتجلّى فيها الآيات الدالّة عليها، فتكتسب إذن في النفوس من الحرمة ما تقتضية عظمة تلك الصفات وقداستها. كما تأسّست أيضا على تشريع يصف الطبيعة على أن بينها وبين الإنسان أخوّة وصداقة ومودّة إذ هما جميعا توأمان في خلق الله تعالى وتدبيره، وذلك ما يقتضي التعامل بالرفق والرحمة لا بالغزو والقسوة. وقد جلّلت هذه المبادئ العقدية المتعلقة بالبيئة الطبيعية بتشاريع عملية تمنع التصرّفات العبثية والتبذير المفرط مما يحدث في البيئة الخلل، فاكتملت إذن دائرة القيم البيئية التي تحفظ الطبيعة من أيّ خلل قد يفضي بها إلى الفساد.

إن هذه القيم البيئية كنز عظيم يمكن للمسلمين أن يقتحموا به السوق العالمية لمعالجة الأزمة البيئية، وهي قيم من شأنها أن تعالج الجذور التي أفرزت هذه الأزمة، ولا تقتصر على معالجة الظواهر بمعالجات تقنية سرعان ما يتلاشى مفعولها إذا لم تعالج الأزمة من جذورها بمثل هذه القيم البيئية،

وذلك أمر تفطّن إليه عالم البيئة الأمريكي آل قور حينما قرّر أن أزمة البيئة ليس لها من علاج إلا العلاج الثقافي الفلسفي، ولكنه لئن أشار في هذا الشأن إلى القيم الإسلامية فإنه لم يوفّها حقها من البيان، فهل يقوم المسلمون بهذا البيان فيما يشهدون به اليوم على الناس؟

## ٢ ـ منهج الحوار الرسالي

قد تكون القيم الإصلاحية تحمل في ذاتها من القوّة ما تقدر به على تغيير التاريخ، ولكنّ هذا التغيير لا يقع؛ ذلك لأن هذا التغيير لا يحصل بمجرّد القوّة الذاتية للقيم، وإنما يحدث إذا بُلّغت تلك القيم للناس على الوجه الذي يكون به تأثير عليهم، فيتحمّلونها التحمّل الفاعل في النفوس المؤثّر في السلوك، وإذن فإن منهجية الشهادة على الناس أمر لا يقلّ في الأهمّية عن قيمة المشهود به من القيم، وهو ما يطرح على المسلمين مسؤولية كبرى فيما يقدّمونه للناس من قيم هي من حيث ذاتها من صياغة الدين، ولكن عليهم هم أن يصنعوا في تقديمها للناس من المناهج ما يجعلها مقبولة لدى أهل الغرب، مؤثرة في النفوس، فاعلة في السلوك.

إنّ ما يقدّمه المسلمون للغرب من القيم وإن كان في ذاته مشتقّا من الدين، إذ الدين هو القيّم على كلّ الحياة، إلا أنه لا مانع من أن تقدّم هذه القيم باعتبارها قيما إنسانية عامّة، محقّقة لمصلحة الإنسان، معالجة لأوجاعه، فمن تقبّلها من الناس على أنها دين فله ذلك، ومن أرادها قيماً إنسانية فله ذلك أيضاً عسى أن تصبح يوماً نافذة يُطلّ منها على الدين فتكون برهاناً على صحته يؤدّي به إلى الدخول فيه. وفي كلّ الأحوال فإنّ المسلمين ـ وهم يقدّمون قيمهم للعالم ـ

مطالبون بأن يأخذوا بعين الاعتبار مسالك منهجية ثلاثة:

**أ ـ العلم بالغرب وأهله**

من أوّل الشروط في التبليغ أن يكون المبلّغ عالماً بالمبلَّغ إليه. وإذا كنا نتحدث عما يقدمه المسلمون لأهل الغرب فإن ذلك يقتضي أول ما يقتضي علما بهؤلاء المبلَّغ إليهم المشهود عليهم؛ ذلك لأنّ للناس في الإصغاء والتفهّم والاقتناع مداخل لا يمكن حصولها إلا عن طريقها، فإذا لم يقع الاهتداء إليها أصبح الحوار أقرب إلى أن يكون حوار الصمّ، فيكون التقديم عقيماً.

والاهتداء إلى تلك المداخل لتقديم ما يراد أن يُقدّم بواسطتها أمر ليس بالهيّن على عكس ما يُظنّ، وهو ما يبلغ درجة عليا من الصعوبة في قضية الحال، وذلك بالنظر إلى تعقّد الحياة وتشابكها وتداخلها في عالم اليوم؛ ولذلك فإنّ الأمر يقتضي من المسلمين في سبيل عرضهم قيَمهم أن يؤسّسوا ذلك على علم متين بالغرب وأهله المعروض عليهم، وهو العلم الذي ينبغي أن ينفذ إلى الأعماق لتتبيّن في ضوئه طرق الولوج إلى العقول لإفهامها بالمعروض، وإقناعها به.

وقد يظنّ الكثير من المهتمين بهذا الشأن ومنهم من يعيش السنوات الطويلة بالغرب أنهم وقفوا على حقيقة هذا الواقع الذي يعيشون فيه، لطول عهدهم به وإقامتهم فيه، ولكن عند التبيّن يظهر أن علمهم به لم يكن إلا علما سطحيا تناول المظاهر ولم يتناول الأعماق، فلم يكن إذن كافيا ليُبنى عليه منهج صحيح في الخطاب بالقيم المراد تبليغها.

إن الواقع الغربي يضرب بجذوره في التاريخ الثقافي البعيد الذي يعود

إلى العهد اليوناني وما بعده من عهود، ثم إنه تشكّل بسلسلة متشابكة من المذاهب والفلسفات والأديان، فإذن هذا السطح المرئي منه تحركه وتوجّهه خيوط من الرواسب الفلسفية والثقافية بعيدة الغور متشابكة الأطراف، وإذن فإنّ فهم المداخل التي تتقبّل خطاب القيم يتطلّب علما عميقا بهذه الخلفيات الثقافية والفلسفية والدينية الممتدّة إلى الماضي والمتواصلة مع الحاضر لتتبيّن خلال ذلك التشكيلة العقلية والنفسية التي يتشكّل بها العقل الغربي المخاطَب بهذه القيم، فتتبيّن إذن الأبواب التي يمكن أن ينفذ منها الخطاب، فيُتلقّى بالقبول، ثم بالتفهّم الذي قد ينتهي بالاقتناع، وبذلك يكون هذا الخطاب قد خطا الخطوة المنهجية الضرورية الأولى فيما نقدمه للغرب من قيم.

**ب ـ البرهان العلمي**

حينما يُدرس الغرب من الجهات التي أشرنا إليها آنفا فإنه يتبيّن أن العقلية الغربية قد تشكّلت منذ زمن على المنهاج العلمي الذي يقوم على اعتماد حقائق العلوم الكونية وقوانينها ميزانا أساسيا توزن به الأفكار والآراء من أجل اتخاذ الموقف منها قبولا وردّا، وقد يُلحق بالعلوم الكونية والرياضية في هذا الشأن العلوم النفسية والاجتماعية والاقتصادية، فإذا العقل الغربي بسبب ذلك لا يأبه كثيرا بما تقدّمه إليه من أفكار إذا لم تكن مؤسسة على برهان يتخذ مادّته من هذه العلوم، فإذا ما كانت مؤسّسة عليها أصغى السمع وبادر بالتفهّم الذي قد ينتهي إلى الاقتناع.

وهذا الواقع الثقافي الغربي يقتضي من المسلمين وهم يقدّمون قيمهم أن يصوغوا هذه القيم في مضمار عرضها على الناس صياغة برهانية تستعمل حقائق

العلوم مقدمات للاستدلال عليها ومن شأنها أن تسهم في حلّ المشكلات التي تؤرّق الإنسان في عالم اليوم، فإذا ما قُدمت هذه القيم على هذا النحو البرهاني العلمي جلبت انتباه الناس لما يحدث من تطابق مع تشكّلهم العقلي الثقافي، فتوجّهوا إليها بالدرس من أجل التفهّم، وربما انتهوا من ذلك إلى الاقتناع بها فيبلغ إذن الخطاب أغراضه في أن يقدّم من القيم ما ينفع الناس.

ومن منطلق إيماني فإننا نعتبر أنّه ما من قيمة من القيم الدينية موضوع حديثنا إلا ويمكن أن يُصاغ لها برهان من الحقائق الكونية؛ ذلك لأنّ هذه القيم هي من صنع الله تعالى بطريق الوحي، والكون كله من صنعه عن طريق الخلق، فلا بدّ إذن أن يواطئ وحيه خلقَه ولا يناقضه أبدا؛ ولذلك فإن الله تعالى كلما عرض علينا حقيقة من الحقائق العقدية الكبرى وجّهنا في سبيل التصديق بها إلى آياته في الكون لنتّخذ منها دليلا على صدقها فنؤمن بها بناء على ذلك الدليل الكوني. وهذا المنهج القرآني هو المنهج الذي يبقى صالحا على مرّ الزمان، فليستعمله المسلمون في عرضهم قيمهم على أهل الغرب وقد توفّر اليوم من العلوم الكونية ما يساعد كثيرا على هذه المهمة.

### ج ـ البرهان النفعي

لا يغيب على الأذهان ما شاع في العالم اليوم بصفة عامة، وفي العالم الغربي بصفة خاصّة من فلسفة نفعية ذرائعية، حتى لكأنّ العقول قد تشكّلت في بنائها المعرفي على هذا النحو من النفعية، وذلك على معنى أنها حينما تعرض عليها الأفكار لامتحانها بميزان الحقيقة فإنها تنظر إلى ما تحققه من منفعة لإنسان في حياته الفردية والجماعية، فإن وجدت فيها نفعا تلقّتها

بالقبول ووضعتها في قوائم الحقيقة، وإن لم تجد فيها نفعا تلقّتها باللامبالاة إن لم يكن بالإهمال أو بإدراجها في قوائم الباطل.

ولم يبق هذا السمت المنهجي في التعامل النفعي مع الأفكار منحصراً في الفلسفة النظرية كما بناها وليم جيمس وأتباع مدرسته، وإنما أصبح مسلكا عمليا في السلوك اليومي للعالم الغربي، وهو ما لا تخطئه العين في المواقف الفردية للأشخاص في تعاملهم الاجتماعي، وفي المواقف الجماعية سياسية كانت أو اقتصادية، حتى ليكاد ينتهي الأمر إلى أنّ العلاقات التي تحكم العالم اليوم إنما هي علاقات متأسسة على الفلسفة النفعية التي تقبل الأفكار وتردّها على أساس ما تحققه من نفع.

وإذا كان الدين كله بما فيه من قيم وتشريعات إنما جاء ليحقق للناس المنافع في هذه الدنيا قبل الآخرة، فإن تقديم القيم الإسلامية للعالم الغربي بمنهج نفعي يكون أمرا مشروعا، كما يكون منهجا ناجعاً في العرض، فما من قيمة من القيم الإسلامية إلا وهي تحقّق للإنسان مصلحة في حياته الفردية والجماعية، والموادّ الاستدلالية على ذلك تتوفّر اليوم على نطاق واسع بما توفره العلوم الإحصائية والنفسية والاجتماعية من حقائق تساعد كثيرا في هذا الشأن، وهو الأمر الذي يدعو إذن إلى أن تقدّم هذه القيم لأهل الغرب في صياغة منهجية نفعية، فذلك من شأنه أن يجعل الناس إذا ما وجدوا منفعة لهم فيما يقدّم إليهم يستمعون فيتفهّمون، وهو أول الطريق إلى الاقتناع.

وقد كان هذا المنهج منهجا قرآنيا أيضا، فالقرآن الكريم إذا ما عرض القيم العقدية والاجتماعية فإنه كثيرا ما يعقب عليها ببيان منفعتها دفعا إلى التأمل

فيها للتصديق بها، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آَمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد: ٢٨ ).

ولعلّ من أبلغ البيان للمنفعة التي تحصل من القيم هو أن تعرض تلك القيم في نماذجها العملية المتمثلة في سلوك المسلمين الفردي والجماعي، فحينما يكون هذا السلوك مجسدا للقيم في واقع الحياة، متحققة به المنفعة عيانا، فإن ذلك يكون برهانا في أعلى درجاته من الإقناع ، فتتوجه العقول إليه إذن بالتأمّل ثم سريعا يحصل به الاقتناع إذ ثمرته النفعية حاصلة بالفعل فلا تحتاج إلى كبير جهد للاستنتاج، ولعلّ هذا المنحى في عرض المسلمين قيمهم على أهل الغرب هو المنحى الذي يواجه التحدّي الأكبر في شهادتهم اليوم على الناس، فبقدر ما يكون عليه حالهم في الواقع فيما يتعلق بتطبيقهم للقيم التي يعرضونها يكون نجاحهم فيما يقدمونه إلى أهل الغرب من تلك القيم، فهل يستطيع المسلمون عامة والمسلمون الذين يعيشون في الغرب خاصة أن يواجهوا هذا التحدي بكفاءة؟ ذلك ما يجب أن يعمل من أجله العاملون لتكون شهادتهم على الناس شهادة حق كما طالبهم بذلك ربّ العزّة حينما كلّفه بأن يكونوا شهداء على الناس

والله تعالى ولي التوفيق. .